مراسم وآداب رحلات الخلفاء العباسيين (132هـ/750م- 334هـ/946م)

أسماء بن عمارة*

المقدمـــة

يعدّ القصر في العصر العباسي بمثابة المقرّ الرسمي للبلاط ، فبالإضافة إلى كونه محلّ سكنى الخليفة وسكني زوجاته وجواريه والقائمين على خدمته، كانت تتّم فيه جميع الأعمال المتصلّة بالخليفة والبلاط، ففيه كان يعقد الخليفة جميع مجالسه العامة والخاصة.

لكن المتتبع للمصادر، يتبين أن الخلفاء العباسيين لم يستقروا طويلا في مكان واحد، كما أنهم لم يقيموا دائما في قصورهم، وإنما كانوا دائما في تنقل وتجّول مستمرين، حيث تصورهم المصادر مرّة في الحجّ، ومرّة في الغزو ومرّة في سفر وأخرى في الصيد...، ودائما كانوا يصحبون معهم حاشيتهم وأفراد بلاطهم كما كانوا يضطرون إلى تعيين من ينوبهم في مقرّ إقامتهم.

وبما أن كلمة رحلة تطلق بصفة عامة على كل تنقل في المكان وتستعمل في معنى السفر، والتجّول،[1] فقد دفعتنا معظم هذه التنقلاّت التي كان يقوم بها الخلفاء العباسيون، إلى الحديث عمّا يمكن أن نسمّيه بـ"رحلات الخلفاء العباسين"، والتي يمكن إدراجها ضمن "الرحلات الملكية" التي اتّسم بها خاصة الأباطرة الرومان والملوك الساسانيين، لاسيما أن معظم هذه التنقلات كانت تحتاج إلى عدّة شهور للذهاب ومثلها للإياب وأن العام الواحد قد يشهد أكثر من تنقل واحد بالنسبة للخليفة الواحد.

كما أنّ معظم هذه التنقّلات كانت تتّم وفق مراسم وآداب معينة يمكن إدراجها ضمن آداب الرحلة، والتي تعكس لنا مدى تمّثل الأسرة المالكة العباسية لذاتها وللرعية ومدى ممارستها للبلاط والسلوك البلاطي طيلة أكثر من قرنين من الزمن.

*باحثة تعدّ رسالة دكتوراه.

1- Netton.(I.R.), sv « Rihla », *EI*, v VI, p. 546.

فما هي مناسبات تنقل الخليفة العباسي ؟ وإلى أين كان يرتحل ومن كان يرتحل معه ؟ وما هي المراسم والآداب التي كانت تتم وفقها هذه الرحلات أو التنقلات ؟

I- مناسبات تنقل الخلفاء العباسيين

لا بدّ أن نشير في البداية إلى أنه للتعبير عن تنقّلات الخلفاء العباسيين كثيرا ما تستعمل المصادر كلمة "موكب". وقد جاء في تاج العروس للزبيدي أن كلمة "موكب"، مشتقة من فعل وكب، يكب، وكوبا وجمعها "مواكب". وهي تطلق على جماعة من الناس ركبانا أو مشاة.[2] كما تطلق كذلك على القوم الركوب على الإبل للزينة وكذلك على جماعة الفرسان.[3] ويقال واكب الرجل الجماعة أو واكبهم إذا بادرهم أو ركب معهم في الموكب.[4] فكلمة موكب إذن تطلق على تنقل مجموعة من الأشخاص، سيرا على الأقدام أو ممتطين الخيل أو الإبل.

لكن يبدو أن للكلمة كذلك جذورا تاريخية، تعود إلى أصول قديمة فارسية ورومانية، وهي تطلق على مسايرة الملوك والخلفاء. فقد كان الملك الساساني يمشي في موكب يسايره فيه كبار رجال دولته وخاصّته.[5] وكانت الروم ترى أن الإمبراطور لا يصبح إمبراطورا إلاّ "إذا كان سهل البلوغ ومرئي".[6] كما توارث البيزنطيون هذه الظاهرة،[7] وأخذها عنهم الأمويون، في حين كان الخلفاء الراشدون يمشون كسائر الناس، حيث تشير المصادر إلى أن معاوية بن أبي سفيان كان يمشي في موكب منذ أن كان عاملا على الشام مما أقلق الخليفة

2- الزبيدي، **تاج العروس**، ج 1، القاهرة 1306 هـ، ص. 507.

3- ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد الثالث، بيروت د-ت، ص. 973.

4- الزبيدي، **نفس المصدر**، ج. 1، ص. 507، ابن منظور، **نفس المصدر**، ج 1، ص. 302.

5- Huyse (PH.), *La Perse antique*, Paris 2005, p. 221.

6- Benoist (S.), « Le prince en représentation : visibilité et accessibilité du pouvoir impérial romain d'Auguste à Constantin », in *Images et représentations du pouvoir et de l'ordre social dans l'antiquité*. Actes de colloque, Angers, 28- 29 mai 1999, Paris 1999, p. 248.

7- Canard (M.), « Le cérémonial Fatimide et le cérémonial Byzantin, essai de comparaison », *Byzantion*, V. XXI, 1951, pp. 404-408.

عمر بن الخطاب أثناء زيارته له،[8] وقد واصل الخلفاء الأمويون من بعده المشي في الموكب عدى عمر بن عبد العزيز الذي زهد في مواكب الخلافة.[9]

وقد أخذ الخلفاء العباسيون عادة المشي في الموكب عن الخلفاء الأمويين، الذين ورثوها بدورهم عن الملوك الساسانيين والأباطرة البيزنطيين. وتطورت ظاهرة الموكب في العصر العباسي وأخذت معنى أوسع شمل " المجلس".[10]

وتسمح لنا بعض الإشارات القليلة والمتفرقة في المصادر بتتبع هذه التنقلات أهمها : كتب التاريخ العام وخاصة كتاب " تاريخ الرسل والملوك" للطبري، "العيون والحدائق" لمؤلف مجهول و"تجارب الأمم" لمسكويه، والتي نجد فيها إشارات إلى السنوات التي شخص فيها كل خليفة إلى الحج أو الغزو وذكر من اصطحب معه ومن ترك في عاصمة ملكه. لكن رغم ما تمثله هذه المصادر من أهمية، فإننا لم نجد فيها وصفا مفصلا ودقيقا لما كان عليه موكب الخليفة العباسي في تنقلاته المختلفة، فقد اكتفت في معظم الأحيان بالإشارة إلى سنة حج الخليفة، أو وصف موجز لمواكب تهم خليفة كان يخرج في غزو أو وداع أمير هاشمي أو قائد أو وزير، أو يذهب لاستقباله.

كما اعتمدنا كذلك كتب الجغرافيا والبلدان وأهمها "كتاب بغداد" لابن طيفور والذي يعدّ من المصادر النادرة وهو في الأصل مصدر مؤلف في أخبار الخلفاء وأيامهم لكن لم يصلنا منه إلا الجزء السادس وهو يحتوي على أخبار الخليفة المأمون من دخوله بغداد سنة 204 هـ إلى تاريخ وفاته سنة 218 هـ.[11] وقد أمدّنا بمعلومات عن بعض أسفاره إلى بلاد الشام والروم.

كما أمدّتنا كتب الصيد بمعلومات عن مدى اهتمام الخلفاء العباسيين بهذا النشاط ومدى ممارستهم له وأهمها كتاب "المصايد والمطارد" لكشاجم الذي احتوى على معلومات تخصّ عادات الخلفاء العباسيين في الصيد ومدى ممارستهم لهذا النشاط وتخصيصهم لجزء من وقتهم له.

8 - القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، القاهرة د-ت، ج. 3، ص. 267.

9- بن حسين (بثينة)، **الدولة الأموية ومقوماتها الإيديولوجية والاجتماعية من عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان إلى آخر عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (41-125 هـ/ 660 - 743م)**، شهادة دكتوراه، تونس 1997، ص. 352.

10 -Burton (J.P.), sv « Mawkib », *E.I*, V. VI, p. 841.

11- ابن طيفور، **كتاب بغداد**، القاهرة، 1948، ص. 7.

كما نجد في المصادر الأدبية وخاصة كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني إشارات إلى تنقلات بعض الخلفاء العباسيين وما كان يحدث فيها من مفاجآت، لم يحفل بتدوينها المؤرخون.

وفي كتاب "المحبّر" لابن حبيب إحصاءا لسنوات حجّ العديد من الخلفاء العباسيين.

كما أفادتنا كتب آداب الملوك في معرفة المراسم والآداب المتبعة في مسايرة الخلفاء والملوك وأهمها كتاب "أخلاق الملوك" للثعلبي والمنسوب للجاحظ سابقا والمعروف بكتاب" التاج في أخلاق الملوك". وقد حاول الكاتب فيه أن يستقصي كل الشروط والآداب التي يجب أن يتقيد بها مساير الملك أو الخليفة. كما احتوى كتاب" رسوم دار الخلافة" لأبي هلال الصابئ على معلومات تهم مسايرة الخلفاء في الموكب وما يلبسونه في تنقلاتهم وما تقتضيه تلك المسايرة من آداب. وتكمن أهمية الصابئ صاحب الكتاب في أن جدّ أبيه ثابت كان يسير مع الخليفة المعتضد في أسفاره[12].

وإذا تركنا جانبا النصوص التاريخية وانتقلنا إلى المخلّفات الأثرية، فإنّنا نجد عددا لا يستهان به من الصور التي تكشف لنا عن ممارسة الخلفاء العباسيين لبعض الأنشطة الترفيهية كالصيد والفروسية والتي تطلب تنقّلا وتجّولا مستمرين. من أهمها رسم بالألوان المائية « fresque »، عثر عليه بين عشرات الرسوم الجدارية التي كانت تزيّن جدران قسم الحريم في قصر الجوسق الخاقاني بمدينة سامراء، والذي يمثّل صيّادة في منطقة مستديرة وهي تصارع أحد الوحوش[13].

12- الصابئ، **رسوم دار الخلافة**، بيروت، 1986، ص. 86.

13- Herzfeld (E.), *Die Malereien Von Samarra,* Berlin, 1927.



كما كانت مناظر الصيد كذلك تزيّن الجدران الداخلية لبعض القصور الأموية الصحراوية، كقصير عمرة بالأردن الذي يرجع تأسيسه إلى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (705- 715م)، والذي يحتوى على العديد من الصور التي تمثل مشاهد صيد[14] وقصر الحير الغربي الذي يعود تاريخ بنائه إلى عصر الخليفة هشام بن عبد الملك، حوالي سنة 730[15]. والذي يحتوي على صورة جدارية لفارس يطارد فريسته، وهي محفوظة اليوم بمتحف دمشق الدولي. كما وجدت نماذج لها منقوشة على الأطباق الساسانية.



14- البهنسي (عفيف)، **الفنّ الإسلامي**، دمشق 1986، ص. 255.

15- عكاشة (ثروت)، **التصوير الإسلامي**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1977، ص. 277.



المصدر: قصير عمرة بالأردن



المصدر: متحف دمشق الدولي



طبق نقش عليه صيد الملك سابور الثالث (383–388)[16]

16- Arthur. Pham, *A survey of Persian art*, London and New York 1938.

عثر كذلك في المخلّفات الأثرية التي تعود إلى العصر العباسي، على درهم من الفضة يحمل صورة للخليفة المقتدر بالله (295/320هـ- 908/932م)، وهو محفوظ اليوم بالمتحف البريطاني، وقد مثّل الخليفة بهيئة فارس ممتطيا جواده ومتقلّدا سيفه[17].



الوجــه

17- عكاشة (ثروت)، **موسوعة التصوير الإسلامي**، بيروت 2001، ص. 158.



الـــقـــفـــا

وفي رسوم منمنمات مدرسة بغداد للتصوير الإسلامي، وبالتحديد مخطوطة "مقامات الحريري"، التي قام بنسخها وتزويق منمنماتها الواسطي عام 634هـ/1237م، والمحفوظة بدار الكتب الوطنيّة بباريس تحت رقم Arabe 5847، صورة لموكب مهرجاني، يمثّل استعداد مجموعة من الأشخاص للمسير على خيولمزخرفوهم يحملون الرايات وينفخون في الأبواق، ويعتقد Blochet أن تلك الرايات هي نفسها التي كان يحملها قادة الخلفاء[18]. وهي تمثّل المقامة السابعة.

18– Blochet (E.), *Les enluminures des manuscrits orientaux – turcs, arabes, persans- de la bibliothèque nationale*, Paris, p. 58.



مقامات الحريري. (المكتبة الوطنية بباريس)[19]

وتمثل المقامة الحادية والثلاثون كذلك، صورة لموكب حجّ في طريقه إلى مكّة، وهو محتشد بالراكبين على ظهور الجمال.

19- Mandragore, *Base iconographique du département des manuscrits*, Arabe 5847, 19.



مقامات الحريري. (المكتبة الوطنية بباريس)[20]

20- Mandragore, *op.cit.*, Arabe 5847, 94.

كما احتوت مخطوطة "جامع التواريخ"، لرشيد الدين والتي تمّ إنجازها بين 1304 و1318م، على رسوم توضيحية ذات قيمة فنية كبيرة[21]، من بينها صورة للخليفة العباسي المستعصم بالله وهو يسير في حشد من أتباعه.



رشيد الدين، **جامع التواريخ**. (المكتبة الوطنية بباريس)[22]

21– Blochet (E.), *op.cit*, pp. 76-77.

22– Mandragore, *op.cit.*, Supplément persan 1113, 179 r.

وتمثل هذه اللّوحات مشاهد لمواكب من فترات لاحقة وضعناها للوقوف على مدى التطور الذي حدث.

إذن بالرجوع إلى الإشارات القليلة والمتفرقة التي عثرنا عليها في المصادر، وبالاعتماد على هذه الصور، يمكننا رصد مختلف تنقلات الخلفاء العباسيين، وأهمها:

1- موكب الحجّ

يعدّ من أهمّ المواكب وقد سار فيه الكثير من الخلفاء العباسيين مثلما يدلّ على ذلك الجدول الآتي :

سنوات حجّ الخلفاء العباسيين

اسم الخليفة	سنة الحجّ
المنصور	136 هـ
المنصور	140 هـ
المنصور	144 هـ
المنصور	147 هـ
المنصور	152 هـ
المهدي	160 هـ
هارون الرشيد	170 هـ
هارون الرشيد	173 هـ
هارون الرشيد	174 هـ
هارون الرشيد	175 هـ
هارون الرشيد	177 هـ
هارون الرشيد	179 هـ
هارون الرشيد	181 هـ
هارون الرشيد	186 هـ
هارون الرشيد	187 هـ
هارون الرشيد	188 هـ

المصدر: ابن حبيب، **المحبّر**، بيروت، د-ت، ص. 34-35-36-37-38.

فقد حجّ المنصور أربع مرّات خلال فترة خلافته، وحجّ المهدي مرّة واحدة وكان الرشيد يحجّ سنة بعد سنة أو "يحجّ سنة ويغزو سنة[23]، وقد حجّ عشر مرّات في مدّة خلافته.

كما ذكرت لنا المصادر أن الرشيد حجّ ماشيا، وسبب ذلك أنه تزوّج محظية أخيه أمة العزيز أو غادر وكان قد أقسم الأيمان لأخيه الهادي بأن لا يفعل ذلك، فكان لا بدّ إذن للرشيد من تأدية الكفّارة وهي الحجّ راجلا لنقضه العهد، وتشير المصادر إلى أنه الخليفة الوحيد الذي فعل ذلك[24]، ويبدو كذلك حسب اطلاعنا على المصادر أنه آخر من حجّ من الخلفاء العباسيين.

ونظرا لطول المسافة التي يقطعها موكب الحجّ، فقد أولى الخلفاء العباسيون الطرق التي يسلكها العناية الفائقة، فقاموا بتنظيمها وشقّ المزيد منها، وتشييد المنازل والقصور حواليها وخاصة في عهد الخليفة المهدي الذي أمر بعمارة طريق مكّة وقام بالزيادة في قصور أبي العباس وترك منازل أبي جعفر التي كان بناها على حالها[25]. كما جعل الخلفاء العباسيون كذلك بريدا يصلهم بالأخبار، وينسب للخليفة المهدي أول من أمر بإقامة البريد من الحجاز إلى العراق[26]. واتخذوا كذلك الحمام الذي يربّى لأجل هذه الغاية[27]. كما كانوا يستخلفون دائما من ينوبهم في تسيير شؤون البلاط، يذكر الطبري أن المهدي لما حجّ سنة 160 هـ، استخلف على مدينته ابنه موسى وترك معه خاله يزيد بن منصور وزيرا له ومدبّرا لأمره[28]. وخلّف الرشيد بالرقة لما حجّ سنة 186 هـ إبراهيم بن عثمان بن نهيك العكّي على الحرم والخزائن والأموال والعسكر[29].

23- المقريزي، **الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك**، القاهرة، 1955، ص. 48.

24- المقريزي، **الذهب المسبوك**، ص. 49.

25- الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، بيروت 1966، ج 8، ص. 136؛ السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، بيروت د-ت، دار الأرقم، ص. 217.

26- السيوطي، **نفس المصدر**، ص. 217.

27- الجومرد (عبد الجبار)، **هارون الرشيد حقائق عن عهده وخلافته**، بيروت 1999، ص. 257.

28- الطبري، **نفس المصدر**، ج. 8، ص ص. 132-133.

29- **المصدر السابق**، ج. 8، ص. 277.

ويصطحب الخليفة العباسي معه إلى الحجّ أهل بيته وقواده ووزراؤه وقضاته وكذلك الفقهاء، يذكر المقريزي أن الرشيد "كان إذا حجّ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم"[30]. ولأجل ذلك فقد كان يتجهّز بكّل ما يحتاج إليه هو ومن في ركابه من طعام وشراب ونفقة. فقد أنفق المهدي في حجته سنة 160هـ، ثلاثين ألف ألف درهم سوى ما وصل إليه من مصر ثلاثمائة ألف دينار ومن اليمن مائتي ألف دينار[31]. وينسب للمهدي كذلك أول من حمل إليه الثلج إلى مكّة[32].

كما يشتمل جهاز الخليفة أيضا على الفساطيط والخيم والسرادق[33] وكذلك على كسوة الكعبة وينسب للخليفة المأمون أول من كسا الكعبة بالديباج الأبيض[34].

وقد كان الخليفة العباسي يتولّى بنفسه قيادة موكب الحجّ، أو يكلّف بها أحد أفراد الأسرة العباسية[35]. وبذلك يمارس الخليفة العباسي واجبه الديني المتمثل في أداء فريضة الحجّ، بالإضافة إلى توليه لإمامة الصلاة في المسجد الجامع[36]، وقيادته الجيش الإسلامي في الحروب والغزوات.

2- موكب الحرب

يسير هذا الموكب وقت خروج الخليفة العباسي إلى الغزو أو لإخماد بعض الثورات والفتن التي كانت تندلع في الولايات والأقاليم التابعة للخلافة العباسية. فقد كان من واجب الخليفة العباسي كذلك قيادة الجيش الإسلامي، وقد

30- المقريزي، **الذهب المسبوك**، ص. 52؛ الطبري، **تاريخ**، ج. 8، ص. 132-133-277.

31- المقريزي، **نفس المصدر**، ص. 44.

32- الطبري، **تاريخ**، ج. 8، ص. 134 ؛ السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص. 217 ؛ الجومرد، **هارون الرشيد**، ص. 257.

33- الطبري، **نفس المصدر**، ج. 8، ص ص. 111- 112.

34- **المصدر السابق**، ص. 256.

35- عمارة (أسماء)، **البلاط العباسي من 132هـ/749م إلى 247هـ/861م**، شهادة الدراسات المعمقة، جامعة تونس الأولى، 2003، ص ص. 129-133.

36 – Holt.P.M, sv « Khalifa », *E.I*, V. IV, p. 973.

مارس هذه القيادة الكثير من الخلفاء العباسيين وخاصة الرشيد فقد كان "يحجّ سنة ويغزو سنة"[37].

ومن مواكب الحرب المشهورة التي عرفتها الدولة العباسية: موكب الخليفة هارون الرشيد إلى بلاد الروم لفتح عمورية،[38] وكذلك موكبه لحرب رافع بن الليث[39] أيضا موكب الخليفة المعتصم إلى عمورية لتحريرها من أيدي الغزاة الروم[40] وموكب الخليفة المقتدر لمحاربة مؤنس المظفر[41].

وقد يتولّى الخليفة العباسي بنفسه قيادة موكب الحرب ويستخلف من ينوبه في عاصمة ملكه، أو يكلّف بها قائدا أو وزيرا وفي الكثير من الأحيان يقع تعيين وليّ العهد، وفي هذه الحالة يتحرّك موكب الخليفة لوداع أو استقبال القائد أو الأمير العباسي، يذكر الطبري أن المهدي لما أوفد هارون لغزو الروم" شيّعه حتى قطع الدرب، وبلغ جيحان، وارتاد بها المدينة التي تسمّى المهدية، وودّع هارون على نهر جيحان"[42].

ويصطحب الخليفة أثناء توجهه للحرب أهل بيته وقواده وقضاته ووزرائه وكذلك طبيبه الخاص، يذكر ابن أبي أصيبعة أن المأمون لما عزم على الخروج إلى أرض الروم مرض طبيبه جبرائيل، فأنفذ معه ابنه بختيشوع.[43] ويقوم الناس بتوديع موكب الخليفة والدعاء له[44].

وكان الخلفاء العباسيون يتجهّزون لموكب الحرب، تجهّزا كبيرا من السلاح والآلة والبغال والحديد والنفط والطعام والشراب[45]. وتنصب للخليفة ولمن في ركابه، مضارب ومخيّمات عسكرية في مكان بعيد عن ميدان الحرب، ويحيط بهم الجند للدفاع عنهم، وقد تطول مدّة إقامتهم إلى حوالي الشهرين

37- المقريزي، **الذهب المسبوك**، ص. 48؛ Holt.P.M, *Ibid*, p. 973
38- الأزدي، **تاريخ الموصل**، ص ص. 308-309.
39- الطبري، **تاريخ**، ج. 8، ص. 338.
40- الطبري، **نفس المصدر**، ج. 9، 57.
41- مسكويه، **تجارب الأمم**، القاهرة، د-ت، ج. 1، ص ص. 235-236.
42- يذكر الطبري أن الرشيد لما شخص لمحاربة رافع بن الليث سنة 192 هـ، استخلف بالرقة ابنه القاسم. ج. 8، ص ص. 338.
43- الطبري، **نفس المصدر**، ج. 8، ص. 163.
44- مسكويه، **تجارب الأمم**، ج. 1، ص. 235.
45- ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، بيروت 1956، ج. 1، ص. 58.

يقيمون فيها على نفقة الخليفة الذي يغدق عليهم الصلات، ويستعدون فيها تمام الاستعداد لخوض المعركة[46].

وبقيادته لموكب الحرب يستكمل الخليفة العباسي دوره كإمام للمسلمين ويكسب ولاء الرعية. ولم تكن حركة الخليفة فقط للحجّ والحرب وإخماد الثورات، بل أيضا لمجرّد الانتقال والسفر ومباشرة أحوال الرعيّة.

3- موكب السفر

يتمثل هذا الموكب في تنقل الخليفة بين الولايات والأقاليم، أوفي ضواحي المدينة، والذي يعدّ خروجا إلى الرعية وملاقاة لها، وقد اشتهر به خاصة الرشيد، فقد كان يحب بأن يوصف "بأخي السفر"[47].

وكذلك المأمون فالمؤكد أنه لم يستقر طويلا في مكان واحد ولم يقم دائما في قصره، بل تصوره المصادر مرّة في المدائن ومرّة في دمشق وأخرى في مصر....[48].

ولم يكن الخليفة العباسي يتنقل بمفرده، وإنما كانت تصحبه دائما حاشيته وأفراد أسرته، وكثيرا ما يرافقه في رحلات التنقل هذه الشعراء والأدباء، فيتناولون الرحلة وأهدافها وما ينتظر أن تحققه من خير للخلافة والمسلمين عامة. من ذلك قول أبو العتاهية لما زار الرشيد الريّ :

"إن أمين الله في خلقــه ∴ حنّ به البر إلـــى مولـــده

ليصلح الريّ وأقطارهـــا ∴ ويمطر بها الخير من يده"[49]

كما يصطحب الخليفة في رحلات التنقل النساء، فلما زار المهدي البصرة أخذ ابنته البانوقة معه[50]، ولما خرج الرشيد إلى الريّ أخذ أخته عليّة معه[51].

46- مسكويه، **نفس المصدر**، ج. 1، ص. 235- 236؛ الطبري، **تاريخ**، ج. 8، ص. 144.
47- الأصفهاني، **الأغاني**، بيروت 2004، ج. 1، ص. 74.
48- ابن طيفور، **كتاب بغداد**، ص. 125- 144-155 ؛ القاضي الرشيد، **كتاب الذخائر والتحف**، الكويت 1959، ص. 102.
49- الطبري، **تاريخ**، ج. 8، ص. 317، ضنّاوي (سعدي)، **موسوعة هارون الرشيد**، بيروت 2001، ج. 2، ص. 467.
50- الطبري، **نفس المصدر**، ج. 8، ص. 186.
51- الأصفهاني، **الأغاني**، ج. 10، ص. 144.

ويتركب هذا الموكب من الأشخاص المرافقين له، وكذلك من أناس آخرين يلتقطهم أثناء سيره، أو يكمنون في انتظار مروره، فيظهرون له ويفاجئوه مدخلين عليه جوا من التجديد ويقصرون عنه رتابة الطريق. روى النيسابوري أن الرشيد " قدم مدينة الرقة وبها دير يقال له دير زكي، فلما أقبلت المواكب أشرف أهل الدير ينظرون وفيهم مجنون مسلسل، فلما أقبل هارون رمى المجنون بنفسه، فقال يا أمير المؤمنين قد قلت فيك ثلاثة أبواب، فأنشدك قال نعم. فأنشده :

"لحظات طرفك في العدى تغنيك عن سل السيوف"

ثم قال يا أمير المؤمنين هات ثلاثة آلاف دينار أشتري بها كساءا وتمرا، فأمر له الرشيد بها وحملت إلى أهله.[52]

وفي بعض الأحيان قد يطول تنقل الخليفة إلى درجة يعبّر فيها المرافقون له عن اشتياقهم وحنينهم لأوطانهم فيقولون في ذلك شعرا معبرين فيه عن أساهم ولوعتهم : من ذلك قول علية لما أخذها الرشيد معه حين خرج إلى الري فلما صار بالمرج عملت شعرا قالت فيه :

ومغترب بالمرج يبكي لشجـــوه ∴ وقد غاب عنه المسعدون على الحب
إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه ∴ تنشّق يستشفـــي برائحـــة الركـــب

فلما سمع الرشيد ذلك علم أنها اشتاقت إلى العراق وأهلها به فردّها.[53]

ومن المفاجآت كذلك ظهور أحد شعراء البلاط ومعه أبياتا جديدة أعدّها خصيصا للمناسبة، مثلما فعل ذلك يوسف بن الصقيل، لما ورد الرشيد الرقة كمن له في نهر جاف على طريقه، ثم فاجأه وأنشده أبياتا سرّ بها الرشيد، وقرّبه منه.[54] ولا شك أن الرشيد كان يعجبه ذلك وكان يجد فيه مجالا للفخر وللمدح.

52- النيسابوري، **عقلاء المجانين**، بيروت، د-ت، ص. 172؛ ضنّاوي (سعدي)، **نفس المرجع**، ج. 2، ص. 468.

53- الأصفهاني، **الأغاني**، ج. 10، ص. 145.

54- الأصفهاني، **نفس المصدر**، ج. 23، ص. 186؛ ضنّاوي (سعدي)، **نفس المرجع**،ج 2، ص. 468.

ولعل هذا يفسر حيويته الدائمة وحرصه الشديد على السفر. ومن هنا يمكن أن نستنتج تحول موكب الخليفة إلى مجلس شعري أو أدبي.

وقد يتحول في بعض الأحيان موكب الخليفة كذلك إلى مجلس لردّ المظالم، من ذلك ما رواه ابن طيفور عن الخليفة المأمون أنه " ركب بالشماسية وخلف ظهره أحمد بن هشام فصاح به رجل من أهل فارس. الله. الله يا أمير المؤمنين فإن أحمد بن هشام ظلمني واعتدى علي. فقال: كن بالباب حتى أرجع، ثم مضى فلما جاز الموضع بعدوة التفت إلى أحمد فقال : ما أقبح بنا وبك أن تقف وصاحبك هذا على رؤوس هذه الجماعة وتقعد في مجلس خصمك، ويسمع منه كما يسمع منك ثم تكون محقا أم تكون مبطلا فكيف إن كنت في صفته لك، فوجه إليه من يحوله من بابنا إلى رحلك وأنصفه من نفسك، وأعطه ما أنفق في طريقه إلينا ولا تجعل لنا ذريعة إلى ما تكره من لائمتك فوالله لو ظلمت العباس ابني كنت أقل نكيرا عليك من أن تظلم ضعيفا لا يجدني في كل وقت ولا مجلوا له وجهي ولاسيما من تجشم السفر البعيد وطول المسافة".[55]

نستنتج إذن من خلال ما أورده بن طيفور كيف أن الخليفة قام بإنصاف المتظلم وكيف أن المتظلم لم يمنع عن الخليفة. كما نستنتج حرص الخليفة المأمون على إظهار نفسه في صورة الخليفة العادل فالتعدي عنده على ابنه أقل جرما من تعدي القادر على الضعيف ومن ثمة تحول موكب الخليفة إلى مجلس لردّ المظالم.

وهكذا نتبين أهمية ودور يوم الموكب في تحقيق نوع من الاقتراب بين الخليفة والرعية وإن فصلت بينهم المراسم، حيث يقوم الخليفة برد الأمر إليه وعزل ما بينه وبين رعيته من حجب. وبذلك يصبح الموكب عبارة عن فضاء جامع للخليفة بالرعية.

أخيرا من مواكب الخلفاء :

4- موكب الصيد

يعدّ ضربا من ضروب التسلية، وقد شغف به الكثير من الخلفاء العباسيين، وكان من الهوايات المحبذة لديهم كما يظهر ذلك من خلال النصوص

55- ابن طيفور، **كتاب بغداد**، القاهرة 1949، ص. 59.

التاريخية، فالسفاح كان "شديد اللّهج بالصيد ناشئا ومكتهلا"، ولم يتأخر المنصور عن الصيد، وكان المهدي "مشغوفا بالصيد لا يكاد يغبه"، وولع الرشيد بالصيد وكان يجد فيه أريحية كبيرة لكن لا كمداومة المهدي له، كما كان للأمين كذلك ميل كبير إلى الصيد، أما المعتصم فقد كان أكثر الخلفاء العباسيين محالفة للصيد وأخفهم ركابا لتوفر صفة الفروسية فيه، وكان المعتضد لا ينفك من حرب إلى صيد ولا من صيد إلى حرب، ولم يتأخر الخليفة المكتفي عن الصيد[56].

كما كان للخليفة المقتدر كذلك اهتمام بالصيد، مثلما يدّل على ذلك النقد الذي تمّ العثور عليه والذي صوّر لنا الخليفة على هيئة فارس وقد امتطى صهوة جواده، ممسكا بيده اليمنى للجام جواده، وواضعا يده اليسرى على قبضة سيفه المتدلي. أما ظهر المسكوكة فيظهر لنا صورة ثور بارك، وقد كتب فوق ظهره بخط كوفي "المقتدر بالله"[57]. وتبين صورة الثور البارك أحد هوايات الخليفة المقتدر ألا وهي صيد ثور الوحش، كما يدّل وضعه يده اليسرى على قبضة سيفه كذلك أنه في وضعية سير وليس في وضعية حرب، لأنه في الحرب تترك اليسرى للمقود واليمنى للسيف[58].

ومن ثمة فإن هذا النقد يكتسي أهمية بالغة من الناحيتين التاريخية والفنية،[59] فمن الناحية التاريخية، فقد كشف لنا عن ممارسة الخلفاء العباسيين لهواية الصيد وساهم بذلك في تسليط مزيد من الضوء على النصوص التاريخية، أما من الناحية الفنية، فقد بيّن لنا أن صور سرحات الصيد كانت من الموضوعات المحبذة لدى الخلفاء العباسيين، مثلما يدّل على ذلك أيضا الرسم الجداري الذي تمّ العثور عليه في قصر الجوسق الخاقاني، والذي يمثل صورة امرأة تصارع ضبيا أو ثورا[60].

56- بازيار، **البيزرة**، دمشق 1952، ص. 41-42-43-46-48؛ كشاجم، **المصايد والمطارد**، بغداد 1954، ص ص. 41- 46.

57- انظر الصورة، ص. 7؛ سلمان (عيسى)، "المسكوكات المصورة في مجموعة عبد الله شكر الصراف"، **المسكوكات**، ج. 2، 1969، ص. 19.

58- النقشبندي (ناصر) "نقود الصلة والدعاية"، **المسكوكات**، ج. 3، 1972، ص. 11.

59- سلمان (عيسى)، "المسكوكات المصورة "، **نفس المرجع**، ج. 2، 1969، ص. 19.

60- انظر الصورة العليا، ص. 101.

كما كانت صور سرحات الصيد من أمتع موضوعات تسليات البلاط الساساني، مثلما يدّل على ذلك الطبق الذي نقشت عليه صورة الملك سابور الثالث وهو يصطاد أحد الوحوش[61].

وكذلك البلاط الأموي مثلما كشفت لنا عن ذلك الرسوم الجدارية التي تم العثور عليها في قصير عمرة والتي احتوت على الكثير من الصور التي تمثل مشاهد صيد، وكذلك الصورة الجدارية لفارس يطارد فريسته في قصر الحير الغربي[62].

وقد أخذ الخلفاء العباسيون هواية الصيد عن الملوك الساسانيين بعد أن قلّدهم الأمويين في ذلك، ومن الخلفاء الأمويين الذين اهتموا بالصيد يزيد بن معاوية، فقد كان "صاحب طرد، وجوارح وكلاب ولهو"[63]. ثم الوليد بن يزيد.[64] فالصيد إذن هو سمة من سمات الملك.

وكانت طبيعة المكان تؤخذ بعين الاعتبار عند القيام برحلات الصيد، لذلك فقد فضّل العباسيون الصيد دائما في الأماكن القريبة من ضفة الفرات أوفي السهب العشبية المحيطة بالرقة، والتي كانت منطقة صيد الملوك الآشوريين[65]. كما أكّدت الأبحاث الأثرية ثراء منطقة سامراء وأنها ذات تقاليد عريقة في الصيد وأن المعتصم اختارها كي تكون عاصمة ملكه لأنها أرض صيد[66]. وقد خصص الخلفاء العباسيون في سامراء وبغداد مكانا لوضع الوحوش وهو "الحير"[67].

61- انظر الصورة السفلى، ص. 103.

62- انظر الصور، ص. 102 و103 (عليا).

63- اليعقوبي، **مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر**، القاهرة، دت، ص. 27.

- Lombard (M.), « La chasse et les produits de la chasse dans le monde musulman (VIII-XI siècle), *Annales.E.S.C*, 1969, p. 573.

64- الأصفهاني، **الأغاني**، ج. 7، ص. 38.

65- Lombard (M.), « La chasse et les produits de la chasse «.... », *op.cit.*, p. 573.

66- Northedge (A.), *The historical topography of Samarra*, Samarra Studies I, published by The British School of Archaeology in Iraq, London, 2005, p. 98.

67- Northedge (A.), *op.cit.*, p. 151.

وقد اعتاد الخلفاء صيد الظباء والغزلان، أما الحيوانات التي يصطاد بها فكانت خاصة الكلاب، كما يظهر ذلك من خلال الرسوم الجدارية.

ويصطحب الخليفة معه إلى الصيد أهل بيته وجماعة من خاصته ومواليه، كما يتجهز تجهزا كاملا من الخزائن والخدم والطعام للعسكر والعلوفة للدواب، كما تؤمن الطرق للخليفة ولمن في ركابه[68].

نلاحظ إذن اهتمام الخلفاء العباسيين بالصيد وممارستهم لهذا النشاط بالتداول خليفة بعد خليفة، وقد تأثروا في ذلك بالخلفاء الأمويين والملوك الساسانيين، هذا ما أشارت إليه المصادر وما أكدته لنا بعض الصور المتبقية. لكن ساهم الرسم الجداري الذي تم العثور عليه في قصر الجوسق الخاقاني والذي يمثل منظر صيد نسائي في تسليط الضوء على حقيقة هامة هي مشاركة النساء في رحلات الصيد وهو ما لم تشر إليه المصادر، كما لم نتوقف عليه في أي الصور التي تعود إلى عهود سابقة.

وبصفة عامة فقد تعدّدت وتنوعت مواكب الخلفاء في العصر العباسي، باختلاف الأهداف والغايات المتوجه إليها : فمن الموكب الديني الذي يصل إلى مكة وهو موكب "الحج"، إلى الموكب العسكري الذي يصل إلى أرض الروم وهو موكب الحرب، إلى الموكب الذي يتنقل في الولايات والأقاليم التابعة إلى الخلافة العباسية، وفي ذلك تأدية لواجب ديني وعسكري يتمثل في دور الخليفة كإمام وقائد للمسلمين، ومباشرة لأحوال الرعية وفي نفس الوقت ترفيها وتسلية عن النفس. ومما لا شك فيه أن معظم هذه التنقلات كانت تحتاج شهورا للذهاب ومثلها للإياب مما يكشف لنا عن حركية وديناميكية البلاط العباسي ويؤكد الصفة "المهتزة" للإطار المادي للبلاط العباسي والذي يتمثل في القصر.

ولم يكن الخليفة يتنقل بمفرده، وإنما تصحبه حاشيته وأفراد أسرته وهم في ذلك يبتعدون ابتعاده، ويعيشون عيشه، ويشتاقون اشتياقه، وفي نفس الوقت يتقيدون بشروط وضوابط تعرف في المصادر بشروط وآداب المسايرة أو الملازمة.

68- المسعودي، **مروج الذهب**، ج. 3، ص. 311؛ الصابئ (أبو الحسين هلال)، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، 1958، ص ص. 144-145.

II- المراسم والآداب الخاصة بتنقلات الخلفاء العباسيين

استعملت كلمة مراسم في البداية بمعنى الأمر. فيقال رسم له كذا أي أمره به فارتسم أي امتثل، وهي تعرف كذلك بكلمة رسوم : أي الذي يبقى على السير يوما وليلة، وقد ورد هذا في لسان العرب لابن منظور[69]. ويبدو أن الكلمة قد تطورت في ما بعد، وأصبحت تطلق منذ القرن الثالث هـ على مجموع العادات المتبعة في مجالسة الملوك والخلفاء ومنادمتهم ومقابلتهم ومكالمتهم وكذلك أثناء مسايرتهم في الموكب[70]. وهي تقابل بهذا المعنى ما يعرف في الفرنسية بكلمة étiquettes.

ونجد في كتاب "أخلاق الملوك" للثعلبي و"رسوم دار الخلافة" للصابئ أخبارا وافية تخصّ مراسم العباسيين في الموكب.

1- شارات الخلافة أو الملك

لا بدّ إذن أن يكون موكب الخليفة مهيبا ولا يتم ذلك إلا بتوفر مجموعة من الرموز بها تكون شرعية المنصب أو السيادة. وتتمثل هذه الرموز في أولا:

* ركاب الخليفة

والذي يكون عادة ناقة تعلوها قبّة، كثيرا ما تتسع لشخصين وخاصة أثناء مسير الخليفة إلى الحجّ، وذلك كي يكون للخليفة "عديل" أو "زميل" يخفف عنه رتابة الطريق وغالبا ما يختاره من أهل الأدب والفكاهة.[71] وتعدّل القبة على الدابة بواسطة مثقلة من الرصاص[72]. أو قد يركب الخليفة فرسا وخاصة أثناء مسيره للغزو أو الصيد، كما يظهر ذلك من خلال المصادر ومثلما تدّل على ذلك الصورة المنقوشة للخليفة المقتدر بالله على الدرهم الفضي الذي تمّ العثور عليه[73].

69- ابن منظور، **لسان العرب**، ج. 3، ص. 72.

70- Lambton, « Marasim », sv *E.I*, t VI, p. 502.

71- الأصفهاني، **الأغاني**، ج. 18، ص ص. 133- 155، ج. 23، ص ص. 90-91؛ ابن طيفور، **كتاب بغداد**، ص. 11؛ المسعودي، **مروج الذهب**، ج. 3، ص. 307.

72- المسعودي، **مروج الذهب**، ج. 4، ص. 312 ؛ انظر الصورة ص. 7.

73- **المرجع السابق**، ج. 3، ص. 312؛ انظر الصورة ص. 7.

وقد تستعمل هنا المظلّة وتعرف بشمسة الخلافة وهي عبارة عن آلة متحركة تحمل على رأس الملك، على رأس رمح بيد أمير يكون راكبا بحذاء الملك، يظلّه بها عند ركوبه من الشمس، فهي من الامتيازات الخاصة بالملوك والخلفاء[74]. فلما خرج المقتدر لقتال مؤنس كان رأسه مغطى بشمسة[75]. وكان عبد الملك الزيات يتولى للمعتصم ما كان يتولاه أبوه للمأمون من عمل المشمس[76]. وستصبح المظلة أداة رسمية في الموكب في عهد الدولة الفاطمية[77]. أما البيزنطيون فلم يعرفوا المظلة البتة[78].

أما مجلس الخليفة على ظهر الفرس فكان سرجا مغشّى بحلية من الفضة، وذلك إلى عهد الخليفة المعتز الذي أظهر الركوب بحلية الذهب[79]. فلا بدّ إذن أن يتميّز فرس الخليفة عن بقية الفرسان، وهو ما تبرزه لنا صورة فرس الخليفة المستعصم بالله العباسي مقارنة بفرسان المرافقين له، والتي وردت في مخطوطة رشيد الدين[80].

وقد يركب الخليفة أحيانا حرّاقة (أي سفينة) وخاصة أثناء توجهه للسفر أو للنزهة[81]، عادة ما تحتوي على بابين: واحد للخاصة وآخر للعامة. يذكر الطبري أن يحي بن خالد" صار إلى أمير المؤمنين في حرّاقته، فدخل إليه من باب صاحب الخاصة فكلّمه في حوائج الناس وغيرها من إصلاح الثغور وانصرف"[82]. وهذه الثنائية المتمثلة في باب الخاصة وباب العامة نلاحظها كذلك حتى في القصور فعندما أسس الخليفة المعتصم سامراء جعل "دار العامة" للنظر في شؤون العامة والجوسق الخاقاني لإقامته الخاصة[83].

74- القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، بيروت 1987، ج. 2، ص. 141؛
Chalmeta (P.), sv « Mizalla », *E.I*, v VII, p. 192.

75- Chalmeta (P.), *op.cit.*, p. 192.

76- الطبري، **نفس المصدر**، ص. 8371.

77- Canard (M.), « Le cérémonial Fatimide et le cérémonial Byzantin ... », *op.cit*, p. 397.

78- *Ibid*, p. 108.

79- المسعودي، **نفس المصدر**، ج. 4، ص. 180.

80- انظر الصورة ص. 10.

81- الأصفهاني، **الأغاني**، ج. 4، ص. 104.

82- الطبري، **تاريخ**، ج. 8، ص. 299.

83- Northedge (A.), *Entre Amman et Samarra : l'archéologie et les élites au début de l'Islam (VII-IX e siècles)*, Synthèse de travaux soumise pour l'obtention de l'habilitation à diriger des recherches, Université de Paris I, Octobre 2000, p. 92.

كذلك من شارات الخلافة في الموكب :

* "**زيّ الخلافة**"

ذلك أن الذي جرت به العادة أن يكون خروج الخلفاء بألبسة رسمية تعرف بزيّ الخلافة، وهي تتكون عموما من :

"**قضيب الرسول**" الذي يمسكه الخليفة بيده و"**بردة الرسول**" التي يضعها على كتفيه.

وقد ذكرت البردة والقضيب منذ بدايات الدولة العباسية حيث كان كلّ خليفة عباسي يتلقى عند توليته البردة والقضيب والخاتم[84]. وكذلك أثناء خروجه في الموكب، يذكر صاحب كتاب " العيون والحدائق" أن الخليفة المقتدر لما خرج لقتال مؤنس ركب وعليه البردة وبيده القضيب[85]. أي في هيئة ليست بعيدة عن الهيئة المنقوشة على النقد.

أما البردة فهي بردة الرسول محمد كان الخلفاء يلبسونها في المواكب، وهي شملة مخططة وقيل كساء أسود[86]. فهل يمكننا إذن القول بان الكساء الظاهر على كتف المقتدر في المسكوكة هو بردة الرسول محمد، لاسيما وأنه مخطط ؟ في الحقيقة لا يمكننا الجزم بذلك، لكن ما يمكن قوله هو أن هذا النقد يمثل الخليفة في زيّه الرسمي، أي في زيّ الخلافة مما يساهم في إضفاء مزيد من الأهمية على النصوص التاريخية. لكن البردة التي على كتف المستعصم بالله في المنمنمة فلا يمكن اعتبارها بردة الرسول لأنها لم تكن سوداء أو مخططة. وأما القضيب فهو عود كان النبي يأخذه بيده[87].

كذلك من ألبسة الخلفاء في الموكب" الدرّاعة" وهي عبارة عن جبة مشقوقة المقدم ومزودة بأزرار من أمام[88]. فقد روي عن الرشيد أنه كان يحج

84- الطبري، **تاريخ**، ج. 8، ص ص. 113- 187؛

Sourdel (D.), « Questions de cérémonial abbasside », *op.cit.*, p. 135.

85- مؤلف مجهول، **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، القسم الأول، ج. 4، ص. 246.

86- القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج. 3، ص. 289.

87- **المصدر السابق**، ج. 3، ص. 290.

88- ابن منظور، **لسان العرب**، ج 5، ص. 538؛

Sourdel.(D.), « Questions de cérémonial abbasside », *op.cit*, p. 133.

سنة ويغزو سنة وكان يلبس درّاعة كتب من خلفها حاج ومن قدّامها غاز[89]. وكان المعتصم لما خرج لفتح عمورية عليه درّاعة من الصوف[90]. كما كانت العمامة لباسا ملازما للخلفاء، فلما خرج المعتصم لفتح عمورية تعمم بعمامة الغزاة[91]. وقد ارتدى الخليفة المقتدر عمامة ربطت بعصابة[92].

وتختلف كذلك ألبسة حاشية الخليفة في الموكب عن ألبستهم في غير الموكب، ففي الأيام العادية تكون الألبسة كلها بيضاء أما في الموكب فإن الألبسة السوداء تصبح إجبارية[93].

كما ألقى الرسم الذي تم العثور عليه في قصر الجوسق الخاقاني على ملابس الصيد النسائية والمتمثلة في الرداء.

كذلك من مستلزمات أي تحرك لأي موكب :

*** "الأعلام"**

وهي الرايات التي تحمل خلف السلطان عند ركوبه، وهي من شعارات الملك القديمة، وقد اتخذها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وورثها عنه الخلفاء العباسيون، وكانت راياتهم سوداء[94]، يذكر صاحب الأغاني أنه لما توفي العباس بن محمد بن خالد بن برمك وأخرجت جنازته "جاء الرشيد في الخلق بالأعلام والحراب فصلى عليه ووقف على قبره حتى دفن... ولما فرغ من أمره عزاهما وأمرهما بالانصراف"[95].

ويبدو أن الرايات أصبحت من الآلات الأساسية بالنسبة لأي موكب، سواء كان خليفي أو جماهيري كما يبدو واضحا من خلال المنمنمة التي تمثل المقامة السابعة من مقامات الحريري والتي تمثل صورة موكب مهرجاني لأجل نهاية رمضان، وهو يتألف من مجموعة من الرجال على أحصنة وهم يحملون

89- الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص. 206.
90- المسعودي، **مروج الذهب**، ج. 4، ص. 60.
91- **المصدر السابق**، ج. 4، ص. 60.
92- انظر الصورة، ص. 7.
93- Sourdel (D.), *Ibid*, p. 140.
94- القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج. 2، ص. 140.
95- الأصفهاني، **الأغاني**، ج. 16، ص. 165.

الرايات. وكذلك المنمنمة التي تمثل المقامة الحادية والثلاثين والتي تمثل قافلة في طريقها إلى الحج وهي محتشدة بالرجال يرفعون الرايات.

كذلك من شارات الخلافة في الموكب " الحربة"، التي كان يتقلدها صاحب الشرطة، والتي يقال أنها للرسول محمد[96]. أيضا "العصي" و"القسي" التي كان يحملها خدم صغار يسميهم هارون النمل، يرمون بها من يريد اعتراض الخليفة في طريقه[97]. وتبرز المنمنمة التي وردت في مخطوطة " جامع التواريخ" الخليفة المستعصم بالله وهو يسير وسط حشد من أتباعه، وقد حمل اثنان منهم الرايات وحمل واحد آخر عصا[98].

من آلات الموكب كذلك " المحمل" الذي يحمل على أعلى ظهر الجمل، وقد تم اتخاذه منذ بدايات الدولة العباسية. وقد احتوت المنمنمة التي تمثل قافلة في طريقها إلى الحج على صورة للمحمل[99].

أخيرا "الفساطيط" و"الخيام"، تتخذ من ثياب الكتان والقطن وتستعمل في الأسفار[100]، ولا يقل مجلس الخليفة في الخيمة أو المعسكر وجاهة عن مجلسه في القصر، فقد كانت تبسط له الفرش والوسائد والمخاد وكلّها من الخز الأسود[101].

نلاحظ إذن أن معظم هذه الرموز تبرز الخليفة العباسي وكأنه في عاصمة ملكه لا يشاركه فيها أحد، نلاحظ كذلك أن أغلب هذه الرموز هي رموز ملك إسلامي، وذلك عكس المجلس الذي تختلط فيه شارات الملك الإسلامي بشارات الملك الساساني والبيزنطي، وبالتالي فإن هذا من شأنه أن يبرز الخليفة العباسي في صورة الوارث للرسول محمد وخاصة من خلال لبسه للبردة وحمله للقضيب والسير أمامه بحربة الرسول، مما يضفي عليه مزيدا من الشرعية بالإضافة إلى الانتساب الأبوي للرسول.

96- الطبري، **تاريخ**، ج. 8، ص. 186، ج. 4، ص. 210.

97- الأصفهاني، **نفس المصدر**، ج. 23، ص. 186.

98- انظر الصورة ص. 10.

99- القلقشندي، **نفس المصدر**، ج. 2، ص. 145؛ ذو النسبين (دحية والحسين)، **كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس**، بغداد، 1946، ص. 36؛ انظر الصورة رقم 9.

100- ابن خلدون، **المقدمة**، بيروت 2001، ص. 301.

101- الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص. 274.

ومن ثمة نتبين الرغبة لدى الخلفاء العباسيين في استعراض رمزية السلطة تلك الرمزية التي تتخذ شكلا أكثر بروزا من خلال التنظيم الدقيق لموكب الخليفة.

2- تنظيم الرحلة

يشرف على تنظيم موكب الخليفة موظف خاص يعرف بصاحب الركاب[102]. وهنا لا بد أن نشير إلى أنه لا يجوز لأي كان السير في موكب الخليفة دون إذن منه، كما ان اختيار الخليفة لشخص ما كي يسايره لا يمكن اعتبارها وضعية قارة بل هو امتياز يمنحه الخليفة لمن اختاره لمسايرته.

وقد وصف لنا أبو هلال الصابئ التنظيم الذي يسبق خروج الخليفة إلى الموكب. فقد ذكر أنه "إذا اتفق يوم موكب خرج الخادم الحرمي، الرسائلي، فاستدعى حاجب الحجاب كي يقف في الصحن ويقبّل الأرض ثم يدعو الناس على مراتبهم. وكان يدعو أولا وليّ العهد إن كان هناك وليّ عهد ثم أولاد الخليفة إن كان له أولاد ثم يدخل الوزير ويمشي الحجاب بين يديه إلى أن يقرب من السرير، فإذا قرب تأخروا عنه وبعد تقبيل الأرض يدنو الوزير من الخليفة، فإذا مدّ له يده قبّلها ثم تنحى ووقف يمين السرير على بعد خمسة أذرع منه، وبعده يدخل حاجب الحجاب على الخليفة أمير الجيش فيقبل الأرض ويقف يسار السرير، ثم أصحاب الدواوين والكتاب وأوصل القواد فيقفوا يمينا وشمالا حسب مراتبهم، ثم ينادي ببني هاشم فيقدمون إلى أول البساط ويسلمون ويقفون مفردين، ثم تقع دعوة القضاة فيقدم منهم قاضي القضاة وعندها يقع الإذن العام فيدخل الجند ويصطفون صفين بين حبلين ممدودين في صحن السلام"[103].

نستنتج إذن أن ولي العهد يحتل المرتبة الأولى في نظام المراسم ثم يأتي في المرتبة الثانية الوزير وفي المرتبة الثالثة أمير الجيش ثم يأتي في المرتبة الرابعة الكتاب وفي المرتبة الخامسة القواد فبني هاشم فالقضاة الذي يحتلون المرتبة الأخيرة في نظام المراسم يوم الموكب. وبعدها يقع الإذن العام ويصطف الجيش مكونا صفين ونصل في النهاية إلى ممر طويل من الأشخاص الوقوف ينتهي إلى صدر الإيوان أين يجلس الخليفة والذي يؤكد بهذه الطريقة

102- Sourdel (D.), « Questions de cérémonial abbasside », *op.cit.*, p. 146.

103- الصابئ (أبو هلال)، **رسوم دار الخلافة**، بيروت 1986، ص. 78.

مركزيته سواء بالنسبة لحاشيته أو بالنسبة لأفراد الأسرة المالكة العباسية. وتزيد عملية تقبيل اليد في تأكيد رمزية الخضوع لسلطته. ويشير مثل هذا التنظيم إلى مسألة التراتبية داخل مجتمع البلاط والتي يفرزها نظام المراسم.

فموكب الخليفة إذن هو مضبوط بهرمية معينة يحتل فيها الخليفة مركز السيادة ثم تتحدد علاقة الأشخاص به حسب المرتبة أو المنزلة الاجتماعية ومن هنا تصبح هيئة الموكب اختزالا لتراتبية مجتمع البلاط.

وقد أولى نوربار إلياس هذه المسألة اهتماما خاصا مبينا أن "هرمية الامتيازات التي أسستها آداب البلاط تجعل هذه الأخيرة تستمر وتحافظ على وجودها نظرا لأن الأطراف المختلفة تتمسك بالمنزلة التي أفردتها لها تلك المراسم حرصا على حظوظ النفوذ داخل البلاط وهذه العملية التلقائية هي التي توفر أسس الاستمرار لنظام المراسم"[104].

لكن مهما كانت طبقة المساير للخليفة، فلا بد أن يتبع نظام آداب صارم يعرف في المصادر بـــ :

3- آداب المسايرة أو الملازمة

وتتمثل في أن يحسن المساير للخليفة اختيار دابته، فينبغي أن تكون قليلة اللعاب والعبث برأسها، وقليلة الصهيل والشغب، وينبغي كذلك أن لا تبول ولا تروث وأن لا تحاذي في سيرها سير دابة الخليفة وإن فعلت ذلك منعها صاحبها.

ويجب على مساير الخليفة كذلك أن لا يمس ثوبه ثوب الخليفة ويجب أن يعرف الاتجاه الذي يسير فيه الخليفة دون أن يلتفت كثيرا للنظر إليه، ويجب أن يبقى صامتا ولا يتكلم إلاّ للإجابة عن سؤال الخليفة.

وإذا طلب منه الخليفة محادثته فيجب أن يخرج عليه في المسايرة حتى يكون كالسابق له قليلا ويكون هو الملتفت إليه ولا يكلفه الالتفات إليه[105]. وهذه الآداب هي مستوحاة من آداب الملك الساساني[106].

104- Elias (N.), *La société de cour*, Paris 1985, p. 72.

105- الصابئ (أبو هلال)، **نفس المصدر**، ص. 78؛ الثعلبي (محمد بن الحارث)، **أخلاق الملوك**، بيروت 2003، ص ص. 97-80.

106- Huyse (Ph.), *La Perse Antique*, p. 221.

نتبين إذن أن الحياة في الموكب، هي حياة تنعدم فيها الحركة الشخصية أمام حركة الخليفة. فهي حياة لا نبض فيها إلاّ لنبض الخليفة، كما تنعدم كل صلة بين الطبقات فيما بينهم وتصبح العلاقة الوحيدة ما بين السائرين على منازلهم والخليفة. وهكذا لا يمكن لمساير الخليفة أن يسير حيث شاء كما لا يجوز له أن يتحدث كما يريد وأن ينصرف متى شاء، ولعل المنمنمة التي تصور مسير الخليفة المستعصم بالله في حشد من أتباعه لا تبتعد كثيرا عن هذا المشهد حيث يتقدم شخصان أمام الخليفة لمخاطبته في حين يسير الباقون وراءه حسب مراتبهم[107].

ونحن نعتقد أن هذا النظام، يكاد يكون واحدا أيا كانت المناسبة لأنه يمثل أساس الصورة التي يسعى الخليفة العباسي إلى إبرازها وهي أن لا سلطة فوق سلطة الخليفة. فهو "ظل الله في الأرض".

الخاتمـــة

إن دراستنا لرحلات الخلفاء العباسيين من المصادر والصور تمكننا من الخروج بالاستنتاجات التالية:

– أولا : نلاحظ تعدد وتنوع رحلات الخلفاء العباسيين، فمن الرحلات ذات الصبغة الدينية، إلى الرحلات ذات الصبغة العسكرية والسياسية، إلى الرحلات ذات الصبغة الترفيهية والتسلية، وهو ما يكشف لنا عن حركية وديناميكية البلاط العباسي.

– ثانيا يكشف لنا نظام المراسم المتبع في موكب الخليفة عن امتلاكه السلطة العليا والذي تجلّى لنا على مستوى ارتدائه لزيّ رسمي يعرف بزي الخلافة أشارت إليه المصادر التاريخية كما كشفت لنا عنه مسكوكة الخليفة المقتدر، التي ساهمت في تسليط مزيد من الضوء على النصوص التاريخية. وكذلك على مستوى نظام الآداب الصارم الذي يتقيد كان به مساير الخليفة.

كما كشف لنا كذلك نظام المراسم عن تراتبية داخل المجتمع، سوف تزداد وضوحا في المجالس التي كان يعقدها الخلفاء من حين إلى آخر داخل قصورهم.

107– انظر الصورة ص.107.

- ثالثا وأخيرا : نلاحظ أن الثنائية التي ميّزت الحياة داخل القصور العباسية والمتمثلة، في تخصيص قسم للشؤون العامة وقسم للشؤون الخاصة ميّزت كذلك الحياة داخل الموكب، ويمكن أن نضيف إليها قسم ثالث يتمثل في "الحريم"، فمن المحتمل أن النساء اللاتي كنّ يسافرن مع الخليفة كنّ ينزلن في مضارب خاصة بهنّ يمكن أن نطلق عليها مضارب "الحريم". وبالتالي فإن الحياة داخل الموكب تعكس لنا إلى حدّ ما الحياة داخل القصر، ومن هنا يمكن القول أن عظم منصب الخلافة هو الذي دفع المؤرخين وكذلك الفنانين إلى الاهتمام بمراسمه سواء منها الخاصة بالمجلس أو الموكب.